وظائف العبيد والإماء أمام الفتن والبلاء

(٣)

عباد الله، إن سبب ما نحن فيه من بلاء هو كما قال: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١]، فالمعاصي هي سبب البلاء، وسبيل رفع البلاء هو التوبة، والتوبة المقصودة هي التوبة الصادقة التي يعزم صاحبها على عدم العودة إلى الذنب.

والله يحب لنا أن نتوب، ويريدنا أن ندخل الجنة، ويريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، فإذا تتبعنا آيات الله البينات؛ علمنا ذلك، فالله يأمرنا بالتوبة، وبترك المعاصي، وبالسعي للجنة، وبالهرب من النار، فيقول تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، ويبين أنه يقبل التوبة، ويقول ﷻ: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ويعرض الله ﷻ التوبة على عباده وهم متلبسون بالمعاصي، بل وفي الوقت الذي يبين فيه جزاء تلك المعاصي:

آيات حد القذف: فمن يتكلم في أعراض الناس حده في الشرع هو القذف بأن يجلد ثمانين جلدة، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النور: ٢٣]، ويقول الله تعالى عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [النور: ٤ – ٥]، ففي نفس الوقت الذي يهددهم الله بجزاء هذه المعاصي؛ فإنه يفتح لهم باب التوبة.

آيات تضييع الصلاة: والصلاة التي يقول النبي ﷺ عنها: **"فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ"**[1]، يقول الله: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾ [مريم: ٥٩– ٦٠]، فعلينا أن نتدبر آيات الله البينات، فسنجد آية التوبة ملاصقة لآية العقاب.

آيات تعذيب المؤمنين في الأخدود: وأولئك الذين حفروا الحفر وأضرموا فيها النيران وأحرقوا فيها المؤمنين يخاطبهم الله ﷻ قائلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠]، يقول الحسن البصري عندما قرأ هذه الآية: **"انْظُرْ إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ!"**[2].

---

[1] أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله في سننه (٢٦٢١)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي رحمه الله (٢٦٢١).

[2] تفسير ابن كثير رحمه الله.

آيات حد الحرابة: وهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٣ – ٣٤]. و

آيات جزاء المنافقين: كذلك هؤلاء المنافقون قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧﴾ [النساء: ١٤٥- ١٤٦]، فما الذي يعود عليه من تعذيب عباده، فهو فقط يريد منا إيماننا وصلاحنا حتى يكافئنا عليه بالأجر والمثوبة.

وهكذا يعرض الله التوبة على عباده في سياق آيات العقاب حتى يتدبروا ويرجعوا إليه

فالله جل جلاله يريد لنا التوبة ويدعونا إليها، والنبي صلى الله عليه وسلم يبين ذلك، فعندما جيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالسبي: **"فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"**[1] فهذه هي رحمة الأم برضيعها، فكيف برحمة الخالق بعباده! وكذلك هذه الصحابية رضي الله عنها التي من جهينة: **"أَتَتْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَا، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَلِيَّهَا، فَقَالَ: أَحْسِنْ إِلَيْهَا فَإِذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي بِهَا، فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا ثُمَّ أَمَرَ بِهَا، فَرُجِمَتْ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَقَدْ زَنَتْ، فَقَالَ: لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟!"**[2]، وهكذا عباد الله، فالله يريد منا أن نناديه ونقول: يا رب! مهما فعلنا من معاصي.

يقول الإمام الذهبي رحمه الله: **"لما أمر قَارون البغية بقَذْف مُوسَى عليه السلام غضب مُوسَى عليه السلام فَدَعَا عَلَيْهِ، فأوحى الله إِلَيْهِ: إِنِّي قد أمرت الأَرْض أَن تطيعك فَمُرْهَا، فَقَالَ مُوسَى عليه السلام: يَا أَرض، خذيه فَأَخَذته حَتَّى غيبت سَرِيره، فَلَمَّا رأى قَارون ذَلِك نَاشد مُوسَى عليه السلام بالرحم، فَقَالَ (أي موسى): يَا أَرض، خذيه فَأَخَذته حَتَّى غيبت قَدَمَيْهِ، فَمَا زَالَ يَقُول يَا أَرض خذيه حَتَّى غيبته، فَأوحى الله إِلَيْهِ: يَا مُوسَى، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَو اسْتَغَاثَ بِي لأغثته"**[3]، فماذا بعد ذلك عباد الله يمنعنا من التوبة إلى الله العظيم الكريم الحليم؟!

---

[1] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٩٩٩)، ورواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٥٤).

[2] رواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (١٦٩٦).

[3] الكبائر (١/١٩٩)، للإمام الذهبي رحمه الله.

ومن المأثور أن سيدنا جبريل عليه السلام: "**جَعَلَ يَدُسُّ فِي فِي فِرْعَوْنَ الطِّينَ خَشْيَةَ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ، أَوْ خَشْيَةَ أَنْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ**"[1]، فمن سعة رحمة الله بجميع عباده خشي جبريل أن يتوب فرعون بعدما قال: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾**﴾ [النازعات: ٢٤] فيتوب الله عليه.

فالله لطيف بعباده، وهو سبحانه تواب رحيم، وهو سبحانه يتوب على عباده، فقط علينا أن نتقرب من الله جل جلاله.

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ الْمُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ كُنْ ... امْنُنْ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَا لِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ ... فَبِالِافْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِيَ أَدْفَعُ
مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ ... فَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ
وَمَنِ الَّذِي أَدْعُو وَأَهْتِفُ بِاسْمِهِ ... إِنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقِيرِكَ يُمْنَعُ
حَاشَا لِمَجْدِكَ أَنْ يُقَنِّطَ عَاصِيًا ... الْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالْمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

عباد الله، مع أن المرء يعلم أن الله هو الملك الخالق، وأنه يعترف بمعصيته، وأنها سبب البلاء، ومع لطف الله بالتائبين؛ إلا أن بعض الناس لا يتوبون، ومع ذلك فإن الله لا يمل من معصية عباده، بل يساعدهم على التوبة.

فتارة يساعدهم على التوبة برؤيا يراها المرء، فالإنسان عندما يرى رؤيا تؤثر فيه تأثيرا بالغا، يقول ابن قدامة رحمه الله عن عبد الله بن دينار أحد أئمة المسلمين: "**روي عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته فقال: كنت شرطيا وكنت منهمكا على شرب الخمر ثم ولدت لي بنت فشغفت بها، فلما تم لها سنتان ماتت فأكمدني حزنها، فلما كانت ليلة النصف من شعبان وكانت ليلة الجمعة بت ثملا من الخمر، فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت وحشر الخلائق وأنا معهم فسمعت حسا من ورائي فالتفت فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون قد فتح فاه مسرعا نحوي، فمررت هاربا فزعا مرعوبا، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة فسلمت عليه فرد السلام فقلت: أيها الشيخ! أجرني من هذا التنين أجارك الله فبكى الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه، فوليت هاربا على وجهي فصعدت على شرف من شرف القيامة فأشرفت على طبقات النيران فنظرت إلى هولها وكدت أهوي فيها من فزع التنين فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها! فاطمأننت إلى قوله ورجعت، ورجع التنين في طلبي فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل فبكى الشيخ وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين (أي من مات من الأطفال) فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك، فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربا والتنين من ورائي، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت علي، فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى فتعلقت بها ومدت يدها**

[1] أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله في سننه (٣١٠٨)، وقال الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الإمام الترمذي رحمه الله (٣١٠٨): إسناده صحيح.

اليمنى إلى التنين فولى هاربا، ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي وقالت: يا أبت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)﴾ [الحديد: ١٦]، فبكيت وقلت: يا بنية! وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبت! نحن أعرف به منكم، قلت: فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني قالت: ذلك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي قالت: يا أبت! ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء، قلت: يا بنية! وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم، قال مالك: فانتبهت فزعا، وأصبحت فأرقت المسكر، وكسرت الآنية، وتبت إلى الله ﷻ، وهذا كان سبب توبتي"[١].

فما ألطف الله الذي يري عباده الرؤى ليرجعوا عن غيهم!

وهذا رجل كان يشرب الدخان، ولكنه كان يزاحم المعصية بالطاعات، وكان لا يترك صلاة الجماعة، وذات مرة نزل إلى صلاة العصر متأخرا، فوجدهم قد انتهوا، فذهب لمسجد آخر، وصلى بجواره شيخ كبير السن، ووجد هذا الشيخ من الرجل رائحة الدخان، ثم رجع الرجل المدخن إلى بيته، فإذا بالشيخ الكبير يدق عليه الباب، ففتح له، فقال له الشيخ: إني رأيت رؤيا، فقد أتاني هاتف في المنام، وقال: سوف يصلي عن يسارك العصر رجل مدخن فعظه، فجئت لأعظك بترك الدخان.

فالله ما قدر ذلك إلا لأنه يحب لعباده الخير، ويريد لهم أن يتوبوا.

بل إن الله ﷻ يرسل المواعظ ليتوب الناس، وبعضهم يقول: وكأني أسمع هذه الآية أو هذا الحديث للمرة الأولى، وتفسير ذلك: أن الله أزال ما على القلب من الران حتى تنفذ الموعظة إلى القلب فيتوب المرء.

يروى أن امرأة أرادوها أن تضل أحد التابعين، وهو: الربيع بن خيثم، الذي قال له أنس رضي الله عنه: لو رآك النبي ﷺ لسر لرؤيتك، **"وجعلوا لها إن هي فعلت ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها في تلك الحال، فراعه أمرها وجمالها، ثم أقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو نزلت الحمى بجسمك فغيرت ما أرى من نورك وبهجتك؟ أم كيف بك لو نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك لو سألك منكر ونكير؟ فصرخت صرخةً وخرت مغشيًا عليها، قال: فوالله لقد أفاقت وبلغت من عبادتها أنها يوم ماتت كانت كأنها جذع محترق"**[٢].

عباد الله، إن التوبة هي الوظيفة الثانية للنجاة مما نحن فيه من بلاء، والتوبة التي يريدها الله ﷻ لها شروط؛ منها:

١. التوبة قبل الموت أو قبل طلوع الشمس من مغربها.

---

[١] بتصرف من كتاب التوابين (١/١٢٤)، للإمام ابن قدامة رحمه الله.

[٢] مصارع العشاق (١/٢٢٥)، للحافظ السراج القاري رحمه الله.

٢.الإقلاع عن المعصية.

٣.الندم على فعل هذه المعصية.

٤.العزم على عدم العودة لهذه المعصية مرة أخرى.

هذا إذا كانت المعصية بينك وبين الله، أما إن كانت بينك وبين أحد من الخلق، فبالإضافة إلى هذه الشروط يشترط: أن يسامحك هذا الشخص، بأن ترد له حقه، أو يسامحك عما قلت عنه في عرضه؛ لأن النبي ﷺ قال: "**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**"[1].

فإذا تحققت هذه الشروط في المرء؛ فإن التوبة قد تحققت، وتاب الله عليه، يقول النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه ﷻ: "**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ، فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ، فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ اعْمَلْ مَا شِئْتَ**"[2]، فانظروا إلى فضل الله، ورحمته، وجوده!.

وقوله ﷻ "**اعْمَلْ مَا شِئْتَ**" ليس معناه أن يذنب العبد كما يشاء، ومعنى "**رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ**": أي ربا يقبل توبة عبده المذنب عندما يتوب توبة تتحقق فيها شروط قبول التوبة.

فالمدخن مثلا حتى يتوب عليه أن يقلع عن الدخان، وأن يندم على ما فعله قبل ذلك، وما تسبب فيه الدخان من ضياع المال والصحة، وأن يعزم عزيمة صادقة يعلمها الله على ألا يعود إلى الدخان مرة أخرى، فإن فعل ذلك؛ غفر الله له، فإن شرب الدخان بعد ذلك وغلبته نفسه عليه، ثم تاب مرة أخرى؛ فإن الله يتوب عليه، وهنا يعلم الله من حقق شروط التوبة ممن لم يحققها، ولكن هذا الأمر بين الله وعبده لا يطلع عليه إلا هو سبحانه وتعالى، فالله جل جلاله يعلم من يستطيع أن يتوب توبة نصوحا ولكنه كسول ومقصر، ويعلم من يريد أن يتوب ولكن نفسه حالت بينه وبين التوبة، فبعض الناس يريد فعلا أن يتوب، ولكن نفسه لا تقوى على ترك المعصية، فتحرمه منها، وهذا عليه المحاولة، ثم المحاولة، ثم المحاولة ولو ألف مرة، فإن مات وهو على معصيته؛ قال لربه: كنت أحاول أن أقلع عن المعصية فلم أستطع، ولكن الله جل جلاله يقول: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فلنرجع إلى الله، ولينظر كل منا إلى معاصيه، ويندم على ما فعله في الأيام الخالية، فكم من أموال ضيعناها في معصية

---

[1] رواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٨١).

[2] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٧٥٠٧)، ورواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٥٨)، واللفظ له.

الله، وكم من أوقات ضيعناها في معصية الله، فإن كان يجوز اللطم والندب؛ فلنندب هذه الأيام والساعات التي ضاعت في معصية الله، وهذه الأموال التي ضاعت في معصية الله:

وانْدُبْ زَماناً سلَفا ... سوّدْتَ فيهِ الصُّحُفا

ولَمْ تزَلْ مُعتكِفا ... على القبيحِ الشّنِعِ

كمْ ليلَةٍ أودَعْتَها ... مآثِماً أبْدَعْتَها

لشَهوَةٍ أطَعْتَها ... في مرْقَدٍ ومَضْجَعِ

وكمْ خُطًى حثَثْتَها ... في خِزْيَةٍ أحْدَثْتَها

وتوْبَةٍ نكَثْتَها ... لَمْلْعَبٍ ومرْتَعِ

وكمْ تجرّأتَ على ... ربّ السّمَواتِ العُلى

ولَمْ تُراقِبْهُ ولا ... صدَقْتَ في ما تدّعي

وكمْ غمَصْتَ بِرّهُ ... وكمْ أمِنْتَ مكْرَهُ

وكمْ نبَذْتَ أمرَهُ ... نبْذَ الحِذا المرقَّعِ

وكمْ ركَضْتَ في اللّعِبْ ... وفُهْتَ عمْداً بالكَذِبْ

ولَمْ تُراعِ ما يجِبْ ... منْ عهْدِهِ المتّبَعِ

فالْبَسْ شِعارَ النّدمِ ... واسكُبْ شآبيبَ الدّمِ

قبلَ زَوالِ القدَمِ ... وقبلَ سوءِ المصْرَعِ

واخضَعْ خُضوعَ الُمعترِفْ ... ولُذْ مَلاذَ الُمقترِفْ

واعْصِ هَواكَ وانحَرِفْ ... عنْهُ انحِرافَ الُمقلِعِ

إلامَ تسْهو وتَني ... ومُعظَمُ العُمرِ فَني

في ما يضُرّ الُمقْتَني ... ولسْتَ بالُمرْتَدِعِ

أمَا ترَى الشّيبَ وخَطْ ... وخَطّ في الرّأسِ خِطَطْ

ومنْ يلُحْ وخْطُ الشّمَطْ ... بفَودِهِ فقدْ نُعي

ويْحَكِ يا نفسِ احْرِصي ... على ارْتيادِ الَمخلَصِ

وطاوِعي وأخْلِصي ... واسْتَمِعي النُّصْحَ وعي

واعتَبِري بمَنْ مضى ... من القُرونِ وانْقَضى

واخْشَيْ مُفاجاةَ القَضا ... وحاذِري أنْ تُخْدَعي

وانتَهِجي سُبْلَ الهُدى ... وادّكِري وشْكَ الرّدى

وأنّ مثْواكِ غدا ... في قعْرِ لحْدٍ بلْقَعِ

آهاً لهُ بيْتِ البِلَى ... والمنزِلِ القفْرِ الخَلا
وموْرِدِ السّفْرِ الأُلى ... واللاّحِقِ المُتّبِعِ
بيْتٌ يُرَى مَنْ أُودِعَهْ ... قد ضمّهُ واسْتُودِعَهْ
بعْدَ الفَضاء والسّعَهْ ... قِيدَ ثَلاثِ أذْرُعِ
لا فرْقَ أنْ يحُلّهُ ... داهِيَةٌ أو أبْلَهُ
أو مُعْسرٌ أو منْ لهُ ... مُلكٌ كمُلْكِ تُبّعِ
وبعْدَهُ العَرْضُ الذي ... يحْوي الحَييَّ والبَذي
والمُبتَدي والمُحتَذي ... ومَنْ رعى ومنْ رُعي
فَيا مَفازَ المتّقي ... ورِبْحَ عبْدٍ قد وُقِي
سوءَ الحِسابِ الموبِقِ ... وهوْلَ يومِ الفزَعِ
ويا خَسارَ مَنْ بغَى ... ومنْ تعدّى وطَغى
وشَبّ نيرانَ الوَغى ... لمَطْعَمٍ أو مطْمَعِ
يا مَنْ عليْهِ المتّكَلْ ... قدْ زادَ ما بي منْ وجَلْ
لِما اجترَحْتُ من زلَلْ ... في عُمْري المُضَيَّعِ
فاغْفِرْ لعَبْدٍ مُجترِمْ ... وارْحَمْ بُكاهُ المُنسجِمْ
فأنتَ أوْلى منْ رَحِمْ ... وخيْرُ مَدْعُوٍّ دُعِي

فعلينا –عباد الله– أن نرجع إليه، ونعلم أن هذا هو الحل والسبيل الوحيد لما نحن فيه من بلاء، لا بد أن نصدق الله ﷻ القائل: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١]، والقائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧]، والقائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، فكل شيء غير هذا الحل غامض بالنسبة لنا، فما يحدث لنا من بلاء يختلف الناس هل بالفعل حدث أم لم يحدث، فإن استقر الناس على حدوثه؛ فإنهم يختلفون في فاعل هذا الحدث، فإن استقروا على الفاعل؛ اختلفوا في وجهة نظرهم في هذا الفعل، فأين نحن من ذلك؟ نحن إن علمنا شيئا فلا نعلم الحقيقة كلها، فلا نستطيع الحكم على الأحداث لما خفي منها، فما أمامنا إلا الله ﷻ، ليس أمامنا حقيقة واضحة جلية إلا الرجوع إلا الله ﷻ، وقد أجمع السلف رحمهم الله على مقولة: "**كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ**"[١]، فامدح كما شئت، وذم كما شئت، فالأمر واضح بين، فإن أردنا أن يولى علينا رجل صالح يتقي الله فينا؛ فالأمر راجع إلينا نحن بأن نتقي الله

[١] معجم الشيوخ (١٤٩/١)، للإمام ابن جميع الصيداوي رحمه الله.

سبحانه، وإن أردنا أن يولى علينا رجل يظلمنا؛ فالأمر كذلك راجع إلينا، وهذا ما نقل عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما

سئل: **"يا علي، كيف دان الناس لأبي بكر وعمر ولم يدينوا لك؟ قال: لأن أبا بكر وعمر كان رجالهم أنا وأمثالي، وكان رجالي أنت وأمثالك"**[1]، فأرجع سيدنا علي رضي الله عنه صلاح وفساد الحاكم بما عليه المحكوم.

عباد الله، إن ما يطلق عليه العصيان المدني هدفه كما يقال إغراق الدولة، وينبغي علينا أن نفطن إلى مآل ذلك، فالأسطول الأمريكي على حدود سوريا، فإذا ضربت سوريا وحدث لها ما حدث للعراق، بالإضافة إلى المقولة اليهودية الشهيرة التي نحفظها منذ نعومة أظافرنا وكنا نسخر منها: دولة إسرائيل من الفرات إلى النيل؛ فهل هذا الكلام يصعب حدوثه أو فهمه، فالأمر أكبر من حكومة تسقط، وأكبر من رئيس يعزل أو يرجع، فإذا سقطت البلد بالعصيان المدني سيزداد الفقير فقرا، وتزني المرأة مضطرة لتأتي بالمال لتطعم صغارها، فكل من سينفذ هذا العصيان المدني فإنه سبب من الأسباب المؤدية إلى أن تزني الزانية، ويموت المريض، وغير ذلك مما يمكن أن يحدث.

عباد الله، فلنرجع إلى عقولنا، ولنتحد معا، ولننبذ الخلافات، ولنقو هذه البلد التي أوشكت على الضياع، فإن سقطت فلا مهرب من حرب أهلية، وسوف ينتقل الأسطول الأمريكي من حدود سوريا إلى حدود مصر.

عباد الله، إن مائة ألف من السوريين قتلوا ولم تحرك أمريكا ساكنا، فلماذا تحركت الآن عند مقتل ألف وأربعمائة بالكيماوي؟ إنها تحركت بعد أن أنهكت قوى سوريا، وكذلك في العراق بعدما أنهكت قواها لعشر سنوات في حربها مع إيران، وهل المشكلة في وسيلة القتل؟ فمن السوريين من يقول الآن بعدما حدث: نريد أي حاكم غير بشار ولو أمريكا، فحدث لهم نوع من اليأس، وهذا ما يراد بمصر، يراد لها أن تنهك اقتصاديا، ومنذ ثورة يناير إلى الآن ونحن يقتل بعضنا بعضا، ويضرب بعضنا بعضا، وتنتهك الحقوق، وإن استمر ذلك؛ فستحدث حرب أهلية، أو تقسم البلاد، وتحتل من غيرها من الدول التي ما كانت أبدا نصيرة لنا، فلننبذ هذا العصيان المدني، ولننبذ المظاهرات، فكل ذلك يضعف الدولة، فالأمر أكبر من حكومة تسقط، وأكبر من رئيس يعود، الأمر هو مصر.

فكل منا سوف يموت وحده، وسوف يدخل القبر وحده، وسيسير على الصراط وحده، وسيحاسبه الله وحده، فماذا ستقول لله: هل تقول قمت بالعصيان المدني لأن فلان قال كذا، وفلان قال كذا؟ أم تقول: يا رب، عندما وجدت هذه الفتن تبت إليك واستغفرت، وأنت قلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فأردت أن أغير ما بنفسي، واجتهدت في عملي، وعاملت الناس معاملة حسنة ودعوتهم إلى الخير، فإن حدث أي شيء؛ فأنت مسؤول وحدك أمام الله.

فهذا هو الطريق الوحيد الظاهر لنا والذي أجمع عليه الناس وكل ذي عقل أن نغير ما بأنفسنا؛ لأن ما حدث لم يكن إلا بذنوبنا ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وليس لها من دون الله كاشفة.

[1] شرح العقيدة السفارينية (٦٦٢/١)، للشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد ﷺ.

من أراد مشاهدة الخطب فليتابعنا على موقع جمعية الترتيل: al-tarteel.com